

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم

٢٨ من جمادى الآخر ١٣٨١ هـ - ٧ من ديسمبر ١٩٦١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله
كبير الأنبياء وسيد المرسلين ، صلوات الله عليه وعلى اخوانه
النبيين ، ورضى الله عن المؤمنين الموحدين المخلصين ، وخاصة آل
بيته الكرام وأصحابه المكرمين ، وعلى مشايخنا فى الله أجمعين . .

وبعد :

فإن سيرة حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم خصت من
أسلافنا الصالحين بعناية بالغة ، ولا أعلم أن سيرة من سير الأنبياء
والمرسلين فصلت تفصيلها ولا ضبطت مثل ضبطها .

وإذا كان الله تعالى قد قال لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه

وسلم :

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به

فؤادك)^١ .

فإن وقوفنا على سيرة سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه

^١ - آية ١٢٠ من سورة هود .

وسلم مما يجب علينا نحو أنفسنا ، لأن سيرته العاطرة تثبت
أفئدتنا وتملؤها ايماننا بالله وثقة فيه وشكرا له ، اذ من علينا
سبحانه بهذا الرسول العظيم ، فأخرجنا على يديه من الضلال الى
الهدى ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الفقر الى الغنى ، ومن
الخوف الى الأمن ، ومن الضعف الى القوة ، ومن الشقاء الى
السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد نظرت فى كتاب الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، فوجدت أن آيات منه بينات وكثيرات ،
تناولت فى شتى الصور حبيبتنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ،
فأريت أن أستضىء بنورها وأتكلّم فيها كلاما يغذى ان شاء الله
عقولنا وأرواحنا ، وان كان مقامه صلى الله عليه وسلم أعلا من
أن يتناوله مثلى ، ولكنى نويت بهذا العمل خيرا لى ولاخوانى ،
ولكل امرىء ما نوى .

وقد وجدت أن هذه الآيات البينات تعرضت لشخصه صلى
الله عليه وسلم ، ودلت على مدى عناية ربه به فى ذاته الشريفة ، وفى
آل بيته الكرام ، وأصحابه العظام ، كما تعرضت لرسالته
وشمولها ، ولفضل أمتة وكرامتها ، وكذلك تعرضت للرد على
أعدائه ، اذ أجابت على أسئلة وجهت اليه صلى الله عليه وسلم ،
أو قررت أحكاما فرضها الله عليه وعلى أمتة ، أو قصت عليه
قصصا من أنبياء الرسل السابقين ، أو كشفت له صلى الله عليه
وسلم ما يضمرة له المنافقون ، أو أنذرت أهل البعد عن الله ، أو
بشرت أهل السبق فى الايمان الى غير ذلك من الأغراض ، وقد

رأيت أن أستعين بالله وأحضركم إن شاء الله فى هذه الجوانب
بسلسة من المحاضرات وأبدأ الحلقة الأولى بمحاضرة الليلة .

١. عموم رسالته صلى الله عليه وسلم :

جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم للناس عامة ولم يختص بها
قومه من العرب ، والأدلة من كتاب الله واضحة فى آيات كثيرة
أذكر منها على سبيل المثال :

قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^١

وقوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون
للعالمين نذيرا)^٢ .

وقوله تعالى : (يا أيها النبى إنما أرسلناك شاهدا ومبشرا
ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)^٣ .

وقوله تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم
جميعا)^٤ .

^١ - آية ١٠٧ من سورة الانبياء
^٢ - آية ١ من سورة الفرقان
^٣ - آية ٤٥ من سورة الاحزاب
^٤ - آية ١٥٨ من سورة الاعراف

وقوله تعالى : وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ^١ .

وقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) ^٢ .

ورب ظان يظن أنه صلى الله عليه وسلم بعث لقومه العرب خاصة ، مستبدلا بقوله تعالى :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ^٣ .

ولكنه لو تمهل قليلا لوجد أن الآية التى بعد آية ((الأميين)) المتقدمة تجرى هكذا :

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) ^٤ .
والمعنى فى الآيتين أن الله تعالى بعثه للأميين من العرب وبعثه كذلك لغير العرب .

^١ - آية ٧٩ من سورة النساء .
^٢ - آية ٢٨ من سورة سبأ .
^٣ - آية ٢ من سورة الجمعة .
^٤ - آية ٣ من سورة الجمعة .

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :
كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ نزلت عليه سورة
الجمعة فلما قرأ :

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم)

قال رجل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبى صلى
الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا : قال وفيما
سلمان الفارسى ، قال : فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده
على سلمان ثم قال (لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من
هؤلاء) وفى رواية (لو كان الدين عند الثريا ، لذهب به رجل من
فارس . أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله) ، يشير صلى الله
عليه وسلم بذلك الى العجم وقد فتحت بلادهم فيما بعد فى
خلافة أمير المؤمنين مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(رأيتنى أسقى غنما سودا ثم أتبعها غنما عفرا ، أولها
يأبا بكر) فقال يا رسول الله : أما السود فالعرب ، وأما العفر فالعجم
تتبعك بعد العرب ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (كذا أولها
الملك) يعنى جبريل عليه السلام .

أما أن القرآن بلغة العرب فهذا من حكمته تعالى ، حيث
كان العرب اول المخاطبين بلسان مولانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، كما كانوا أول المؤمنين برسالته صلى الله عليه وسلم ،

وصاروا قادة الناس جميعا الى الايمان . وبقدر ما رأى العرب الاعجاز فى القرآن الكريم ، رأى العجم الاعجاز فى التربية الاسلامية التى احييت العرب من العدم وجعلتهم قادة الأمم ، وانتشار الاسلام فى أوسع أفق وأضيق وقت ما يزال موضع العجب من أعداء الاسلام ، ولو أنهم هدوا الى الحق ، لرأوا أن ذلك من المعجزات التى كانت تدعوهم الى الاسلام لو أنهم طرحوا التعصب لما ألفوا عليه آبائهم ، وأقل نظير فى الحقائق كان يريهم بلا ريب أن الدولة الاسلامية قامت بسرعة غير مسبوقة فى تاريخ البشرية قاطبة ، وتلك بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ومن عجائب الاسلام كذلك أن يتبحر فى علوم اللغة العربية والدين حتى كانت لهم الصدارة فى النحو والتفسير والحديث ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

٢. عموم الرسالة يقتضى الكمال الانسانى :

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة وختمت بها الرسالات ، فقد أعده الله أكمل اعداد لحمل رسالته الكبرى ، وجمع له من الكمالات ما تفرق فى سائر المرسلين ، فاجتمع له مثلا رحمة ابراهيم عليه السلام ، وشدة نوح عليه السلام ، وصبر أيوب عليه السلام ، ولهذا نال من ربه صلى الله عليه وسلم أعظم شهادة بقوله تعالى :

(وإنك لعلى خلق عظيم)^١

^١ - آية ٤ من سورة القلم .

٣. زعامتة صلى الله عليه وسلم على اخوانه الانبياء والمرسلين :

وبهذا الكمال الانساني ، تزعم صلى الله عليه وسلم اخوانه النبيين عن رضا منهم وبتوثيق من الله تعالى ، واقرار في هذه المناسبة قوله تعالى :

(واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)^١ .

واقترضى كماله صلى الله عليه وسلم أن تكون أمته أكرم الامم بدليل قوله تعالى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)^٢

٤. نواحي الكمال الانساني فيه صلى الله عليه وسلم :

ان آيات كثيرة في كتاب الله الكريم تناولت نواحي الكمال الانساني فيه صلى الله عليه وسلم وانى ذاکر لكم بعضها فى شىء من التعقب الذى وفقت اليه .

^١ - آية ٨١ من سورة آل عمران

^٢ - آية ١١٠ من سورة آل عمران

هـ . تعليمه صلى الله عليه وسلم :

ان أول ما نزل من القرآن الكريم هو قوله تعالى :

(إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم)^١ .

والمتمامل فى هذه الآيات يدرك أنه صلى الله عليه وسلم أعطى العلم عطاء من ربه تعالى ، فقد نشأ اميلاً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن قال له مولاه ((أقرأ)) فقرأ ما شاء الله أن يفعل ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وغرف الناس من بحر علمه الغزير حتى صار علم العلماء يقاس بمقدار ما علموه من شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وصدق الله تعالى اذ يقول له صلى الله عليه وسلم :

(وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً)^٢ .

واذ يقول تعالى مخاطباً أمته :

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعثت فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب

^١ - الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ من سورة العلق .

^٢ - آية ١١٣ من سورة النساء .

والحكمة وإن كاموا من قبل لفي ضلال مبين)^١

٦ . تاديبه صلى الله عليه وسلم :

ولما كان الانسان لا يكمل بالعلم وحده فقد أعطى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العلم الأدب العالى ، واستمعوا اليه تعالى اذ يؤدبه بقوله الكريم :

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)^٢

ولما نزلت هذه الآية الكريمة سأل حبيبننا المصطفى صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل عن معناها ، فقال : ((حتى أسأل العالم)) ثم ذهب فأتاه ، فقال يا محمد ((ان الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عن ظلمك)) .

كما قال له تعالى :

(فاصبر كما صبروا أولو العزم من الرسل)^٣

وهكذا لان للناس جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأدب لا يبلغه غيره ، فأنس به النافرون ، واجتمع على حبه المتفرقون ، وتحاب بتقليده المتباغضون ، وصدق تعالى اذ يقول له :
(فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ

^١ - آية ١٦٤ من سورة آل عمران .

^٢ - آية ١٩٩ من سورة الاعراف .

^٣ - آية ٣٥ من سورة الاحقاق .

القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واسـتغفر لهم
وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب
المتوكلين^١

وفىما وصف به اماننا ((على)) كرم الله وجهه مولانا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ((من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه
معرفة أحبه)) .

٧ . تأييده صلى الله عليه وسلم وتشبيته :

آيات التأييد والتشبيت كثيرة فى كتاب الله الكريم ، ولكنى
أضع على رأسها قوله تعالى :
(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)^٢ .

وكفاه رعاية صلى الله عليه وسلم أن يخاطبه مـولاه بهذا
الخطاب ، ومعنى الآية أنك ملحوظ على الدوام ، تكاؤك عناية
الله فى جميع الأوقات ، ومن كان هذا شأنه فهو فى المأمن الحصين
والركن الركين .

وأذكر منها قوله تعالى :

(هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين)^٣ .

وقد كان النصر له على اعدائه بعون الله وتأييده ، حتى لقد

^١ - آية ١٥٩ من سورة آل عمران

^٢ - آية ٤٨ من سورة الطور

^٣ - آية ٦٢ من سورة الانفال

قاتلت الملائكة فى صفوف أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .
وقوله تعالى :

(والله يعصمك من الناس)^١

وقد سرح صلى الله عليه وسلم حراسه حين نزلت هذه الآية .
وقوله تعالى :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^٢ .

والعالمين كل ما سوى الله ، فدخل فى الرحمة غير بنى آدم من
الملائكة والجن .

٨ - عصمته صلى الله عليه وسلم :

لا يستتكف نبي أو رسول مهما علا قدره أن يعلمه الله تعالى
أو يوجهه للخير لأنهم بشر مخلوقون ، وما بهم من نعمة فمن الله
لكنى حين أقول بعصمته صلى الله عليه وسلم ، وعصمة اخوانه
النبيين ، حتى قبل الرسالة فانما أبرؤهم من أن تنسب اليهم
الذنوب صغيرها وكبيرها ، لأنهم مهيبون بعناية الله لدعوة
الناس الى الحق ، وقد أعدهم سبحانه اعدادا خاصا لأن يكونوا
أسوة حسنة لهم ، أو ليس الله يقول :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته)^٣ .

كما يقول سبحانه :

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين

^١ - آية ٦٧ من سورة المائدة

^٢ - آية ١٠٧ من سورة الانبياء

^٣ - آية ١٢٤ من سورة الانعام

عظيم * أنهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم
في الحياة الدنيا)^١ .

ألسنت ترى أن الله تعالى اصطفى على العالمين أنبياءه ورسوله
الكرام عنصرا ، وطوية ، ومسلكا .

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران
على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)^٢ .

وهذا الاصطفاء يفسر كيف نشأ حبيبنا المصطفى صلى الله
عليه وسلم (وهو سليل جده الأعلابراهيم عليه السلام) على
مكارم الأخلاق من الصدق ، والأمانة ، والعزوف عن الدنيا ،
وعدم السجود للأصنام ، وعدم الاستقسام بالألزام ، واجتناب
الآثام ، والخلوة بالله بعيدا عن المجتمع الفاسد ، وكل هذه
الشمالصاحبة صلى الله عليه وسلم قبل أن تأتيه الرسالة دون
أن يوقفه عليها أب أو أم أو مدرس ، وإذا اجتمعت له كل هذه
الفضائل فى النشأة والصبابالباكر ، فانها تزداد وتزدان فى
الشيخوخة وبعد الرسالة.

وإذا كان الأنبياء معصومين قبل الرسالة وبعدها بعصمة الله
الذى يسرهم لما خلقهم له ، فما ظنكم بكبيرهم سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، الذى ظهره وكلمه فى ذاته ، وجعله

^١ - آية ٣٠ و ٣١ من سورة الزخرف .

^٢ - آية ٣٣ و ٣٤ من سورة آل عمران .

مكملا لغيره ، ولو كانت له ذنوب ما استحق أن يقول له مولاه
فى تأكيد واضح :

(وإنك لعلى خلق عظيم)^١ .

ويزيدكم اطمئنانا الى ما أقرره أن الله تعالى طهر له أهل بيته
أكراما له صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا)^٢ .

فكيف بشخصه صلى الله عليه وسلم ، وقد استعارت الآيات
للذنوب : الرجس ، وللطاعات : الطهارة .

أما ما تعرضت له بعض آيات القرآن الكريم فى حقه صلى
الله عليه وسلم مما يوهم فى ظاهره العتاب ، أو نسبه الذنب اليه
صلى الله عليه وسلم أو المؤاخذة فتأويله السليم يرد الفهم الى
الرأى الصحيح ويتفق مع كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وسأتعرض لهذه الآيات فيما يلى :

٩ . فداء أهل بدر :

قوله تعالى :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن

^١ - آية ٤ من سورة القلم .

^٢ - آية ٣٣ من سورة الاحزاب

ففى الأرض ترىءون عرض الدنيا والله يرىء الآخرة والله
عزىء حكىم) ^١ .

ىعاوننا فى تفسير هذه الآىة ما رواه الامام مسلم رضى الله عنه :
من حءىء عمر بن الخطاب قال أبو زمىل : قال بن عباس فلما
أسروا الأسارى ، قال رسول الله صلى الله عىه وسلم لأبى بكر
وعمر : ((ما ترون فى هؤلاء الأسارى)) ؟ فقال أبو بكر : يا رسول
الله ، هم بنو العم والعشىرة ، أى أن تأخذ منهم فدىة ، فتكون
لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن ىهءىهم للاسلام ، فقال رسول
الله صلى الله عىه وسلم : ((ما ترى يا بن الخطاب ؟)) قلت :
(لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى
أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عىنا من عقىل فىضرب عنقه ،
وتمكنى من فلان (نسىب لعمر) فأضرب عنقه ، فان هؤلاء أئمة
الكفر وصنادىده)) . فهوى رسول الله صلى الله عىه وسلم ما قال
أبو بكر ولم ىهو ما قلت ، فلما كان من الغء ، جئت فاذا رسول
الله صلى الله عىه وسلم وأبو بكر قاعءىن ىبكىان ، فقلت :
(يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فان
وجدت بكاء بكىء ، وان لم أجد بكاء تباكىء لبكائكما)) فقال
رسول الله صلى الله عىه وسلم : ((أبكى للذى عرض على
أصحابك من أخذهم الفءاء ، لقد عرض على عذابهم أءنى
من هذه الشجرة)) (شجرة قرىبة من النبى صلى الله عىه وسلم) .

^١ - آىة ٦٧ من سورة الانفال .

والقصة على هذا الوجه ، ليس فيها مأخذ على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الأمر لا يعدو واحد من اثنين : أما أن يكون قد أوحى إليه شيء فى جواز الأسر أو حظره بتاتا ، ولو كان قد أوحى إليه بالحظر شيء ما استشار أصحابه فى الأمر ، مع قيام النص ونزول الوحي ، وان لم ينزل وحى فلا ذنب البتة فى الاجتهاد بالرأى والسير على رأى الغلبة كما تم فى هذه المشورة .

ولو كان فى اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خطأ لنقض الله الخطأ ، وأوحى الى الرسول بقتل الأسرى ويرد ما اخذ منهم من الفدية ، ولكن الوحي جاء صريحا ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

(فكلوا مما غنم حلالا طيبا)^١ .

وبذلك أعلمنا الله أنه لم يقع خطأ البتة .

أما ما صدرت به من قوله تعالى :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) .

فذلك من باب تقرير المبدأ بصفة عامة ، بدليل تنكير كلمة ((نبي)) اذ لم يقل الله تعالى ما كان للنبي بالتعريف .

^١ - آية ٦٩ من سورة الانفال

ولو تأملتم فيما جاء فى الآية ذاتها بعد ذلك من قوله تعالى :
(تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) .

لاستبان لكم أن المعاتين بهذا الخطاب هم الصحابة الذين
مالوا الى اخذ الفدية وليس النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن
الآية قالت (تريدون) بالجمع ولم تقل (تريد) بالمفرد .

وكيف يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الدنيا ،
وقد عافت نفسه الكبيرة أن تتحول له جبال مكة ذهبيا ، حين
عرض عليه سيدنا اسرافيل ذلك ، وكان قد نزل اليه مع سيدنا
جبريل عليهما السلام ، ولم ينزل سيدنا اسرافيل على نبى قبله
صلى الله عليه وسلم ، فقال سيدنا اسرافيل لمولانا رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ((هذه مفاتيح الجبال معى لى وشئت
حولتها لك ذهبيا باذن الله)) ، فقال وما أبعد ما قال : (لا يارب ،
أجوع يوما وأشبع يوما ، أجوع فأذكرك ، وأشبع فأحمدك)) ،
وعندئذ قال له سيدنا جبريل عليه السلام مستحسنا منه ذلك :
((ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد)) .

ويرضى الله عن الامام البوصيرى اذ يقول مشيرا لهذه الواقعة
فى برده المباركة :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضروته ان الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعوى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث السابق ((لقد عرض

على عذابهم أدنى من هذه الشجرة)) يفيد أن المعتاتين هم الصحابة ، وإنما عوتب الصحابة فى الفداء قطعاً للاطماع ، وابتعاداً عن المادة ، ولولا أن ذلك كان من باب ترك الأولى لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأى الأغلبية من أصحابه .
أما قوله تعالى :

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)^١ .

فمعناه لولا قضاء من الله سبق فى اللوح المحفوظ بأن يحل لكم الغنائم ، لمسكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .
وقال ساداتنا ((الحسن)) و ((مجاهد)) و ((سعيد بن جبیر)) فى معناها أنه لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم .

ولهذا كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما .أخذوا من الفداء فنزل قوله تعالى :

(فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً)

وأحل الله لهم بهذا القول تلك الغنائم كما أقرهم على اجتهادهم فى الرأى .

^١ - آية ٦٨ من سورة الانفال

١٠. الأذن للمنافقين بالتحلف عن غزوة تبوك:

قوله تعالى :

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)^١
(عفا الله عنك) تصدرت هذه الجملة الآية ومعناها : لا شئ عليك .

أما الاستفهام فى قوله تعالى :

(لم أذنت لهم)

وهو ما يشعر بالانكار على التصرف لو أخذ الأمر على ظاهره ، فردنا عليه أننا لو فرضنا وقوع الذنب جدلاً ، فقوله تعالى (عفا الله عنك) يدل على حصول العفو ، وبعد حصول العفو لا يبقى محل لأن يوجه اليه الانكار.

أما إذا لم يكن ثمرة ذنب ، فلا يبقى وجه لأن يحمل الأمر على الانكار .

وعندى أن الآية انما جاءت مهجمة للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعذار غير حقيقية كذبوا فيها ولم يكونوا صادقين عند استنادهم اليها ، كما هوجموا فى غزوة الأحزاب بقوله تعالى :

^١ - آية ٤٣ من سورة التوبة

(واذا قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا)^١ .

كما أن الآيات التالية أقرت اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الاذن لهم بالتخلف . اقرار واضحا لا شبهة فيه . ذلك بأنها بينت في وضوح رائع ، أنهم لو خرجوا في صفوف المؤمنين لزادهم خبالا ولأوضعوا خلالهم الفتنة .

بل أنها توجت اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بتاج رفيع ، وأعظمت تصرفه وأكبرته ، حيث أبرزت أن الله كره انبعاثهم عن الخروج دراً للمفسدة التي تترتب في الجيش على خروجهم مع المقاتلين ، وأنتم ترون بهذا أن اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف انما وافق ارادة الله العليا في تثبيطهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم انما ينظر في أموره كلها بنور الله .

واقروا بعد ذلك الآيات البيِّنات لتتأكدوا من المعانى التي ذهبت اليها .

فالآيات التي جرت بعد آية (عفا الله عنك) هي :
(لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر)

^١ - آية ١٣ من سورة الاحزاب

أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليهم بالمتقين * إنما
يسأتذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت
قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا
له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اعدوا
مع القاعددين * لو خرجوا فىكم ما زادوكم إلا خبالا
ولا وضعا خلاكم يبغونكم الفتنة وفىكم سماعون
لهم والله عليهم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا
لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون *
ومنهم من يقول إئذنى لى ولا تفتنى ألافى الفتنة سقطوا
وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * إن تصببك حسنة تسوءهم
وإن تصببك مصيبة يقولون قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا
وهم فرحون)^١ .

ولو أنكم تتبعتم سورة التوبة بعد هذه الآيات ، لوجدتم أن
الآية ٩٤ منها جرت هكذا :

(يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قتل لا تعتذروا

^١ - الآيات من ٤٤ الى ٥٠ من سورة التوبة

لن نؤمن لكم قد نبأنا لله من أخباركم وسيرى الله
عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة
فإنبئكم بما كنتم تعملون) .

وهذا النص يؤيدنى فى أن آية

(عفا الله عنك لم أذنت لهم)^١ .

نزلت كاشفة لبواطن المنافقين ، ليقف المؤمنون على أحوالهم
الحقيقية ولا يصدقونهم فيما يدعون من أعذار كاذبة ، وبذلك
قوى الله حجة المؤمنين الدامغة على حجتهم الداحضة .

فان قال قائل فما معنى قوله تعالى فى الآية ١١٧ من سورة
التوبة وهى التى نصها :

(لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين
اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق
منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) .

فمعنى التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم ، هو أنه تعالى
قبل اجتهاد فى الرأى فى اذنه للمنافقين بالتخلف ، ولأهل المعانى
فى هذه الآية كلام لطيف ، فقد قالوا : انما ذكر النبى صلى الله

^١ - آية ٤٣ من سورة التوبة .

عليه وسلم فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم ،
كقوله تعالى :

(فأن لله خمسة وللرسول)^١ .

وقيل توبة الله عليهم استنفادهم من شدة العسرة ، وخلصهم
من نكاية العدو ، وعبر عن ذلك بالتوبة وان خرج عن عرفها ،
لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع الى الحالة الاولى .

وساعة العسرة التى تشير اليها الآية هى : غزوة تبوك حيث
اشتد الأمر وقتها على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
من المهاجرين والأنصار من قلة الدواب ، حتى كان العشرة منهم
يعتقبون على البعير الواحد ، وكان يقتصم الأثنان منهم التمرة
الواحدة وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وزاد العطش
عليهم من قلة الماء حتى نحروا الابل وعصروا كرشها وشربوه ،
كل ذلك الى جانب حمارة القيظ التى تقذف اللهب ، وبسبب
تلك الشدائد كاد البعض يميل الى التخلف عن الجهاد فى تلك
الغزوة لولا أن ثبتهم الله على الايمان والصبر ، وهذا هو معنى
قوله تعالى :

(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم)^٢ .

^١ - آية ٤١ من سورة الانفال

^٢ - آية ١١٧ من سورة التوبة

١١ — زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب بعد أن
طلقها مولاه زيد بن حارثة :

قوله تعالى :

(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك
عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه
وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها
وطراً زوجها لكى لا يكون على المؤمنين حرج
فى أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله
مفعولاً)^١ .

أسوق لكم موجزا عن قصة الصحابي الجليل ((زيد)) الذى
أشارت اليه الآية الكريمة : فقد كان زيد بن حارثة بن شراحل
الكلبي فيما روى عن أنس بن مالك وغيره مسببا من الشام
سبته خيل من تهمته ، وكان من عادة العرب قبل الاسلام أن
العربى اذا أسر فقد حرته وصار عبدا . وقد أبطل الاسلام ذلك
فاشتره حكيم بن حزام بن خويلد لعتمته السيدة خديجة بنت
خويلد ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له
فأعتقه ، وكانت سن زيد حينئذ حوالى العاشرة وذلك قبل النبوة

^١ - آية ٣٧ من سورة الاحزاب

وأتفق أن حج ناس من كلب ، فرأوا زيذا فعرفوه وعرفهم ، فلما رجعوا الى أهلهم أخبروا أباه بموضعه ، فجاء هو وعمه الى مكة وسألا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدلا عليه بالمسجد ، فدخلا عليه وقالوا : يا ابن عبد المطلب يا ابن سيد قومه ، انتم أهل حرم الله ، تفكرون العاني وتطعمون السير ، جنناك فى ولدنا ((زيد)) عبدك فامنن علينا وأحسن فى فدائه .

قال : ((وما ذاك)) ؟

قالوا : ((زيد بن حارثة ، نريد شراءه)) !

قال : ((أو غير ذلك . . ادعوه فخيروه ، فان اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء)) .

قالوا : ((لقد زدنا على النصف)) !

((وجاء زيد فسأله الرسول الكريم : هل تعرف هؤلاء)) ؟

قال : ((نعم . . هذا أبى ، وهذا عمى)) .

قال : ((فأنا من علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما)) . فقال زيد : ((ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكان الأب والعم)) .

فقالا : ((ويحك يا زيد . . أختار العبودية على الحرية وعلى أبىك وعمك وأهل بيتك ؟))

قال : ((نعم ، انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه احدا)) .

فلما آثر زيد النبي صلى الله عليه وسلم على أهله ، ذهب به الى قریش بالمسجد ، فقال اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وارثه ، وبهذا تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يدعى زيد بن محمد ، ولما رأى أبوه زيد وعمه ذلك ، طابت نفسيهما وانصرفا عائدين الى بلادهما .

وظل ((زيد)) يدعى ((زيد بن محمد)) حتى جاء الاسلام ونزل قوله تعالى :

(ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم في الدين ومواليكم)¹ .
فرجع زيد الى اسم أبيه حارثة ، ورجع كل من كان في مثل حاله الى الانتساب الى آبائه .

وسيدنا ((زيد)) من أجلاء الصحابة وأحد المسلمين الخمسة الأول من غير نزاع ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن رأس عددا من السرايا والغزوات يقارب ما رأس زيد من ذلك ، وقد كان قائدا مظفرا وفارسا منصورا في كل غزواته حتى استشهد في غزوة مؤتة الى روح وريحان وجنة نعيم .

وقد شرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبه حتى كان يقول له ((يا زيد . أنت مولاي ومنى والى واحب الناس الى)) .
وتوجه الله بالشرف السمي ، اذ ذكره في القرآن الكريم باسمه

¹ - آية ٥ من سورة الاحزاب

ولم يذكر فى القرآن باسمه صحابى آخر ، فصار اسمه قرآنا يتلوه أهل الدنيا فى المحاريب وأهل الجنة كذلك أبدا ، كما يتلوه السفرة الكرام البرزة ، ولا يفوتكم أن قوله تعالى :

(للذى أنعم الله عليه) مبشرا بانه رضى الله عنه من أهل الجنة ، لأن الله أنعم عليه بالايمان ، وعلم هو بهذه البشرى قبل موته ، وما اعظمها من بشرى الهية ، والله كريم اذا أعطى لا يسلب عطيته .

وما نال سيدنا ((زيد)) كل هذا الاكرام الا ببركة النبى صلى الله عليه وسلم حين آثره زيد على أبيه وأهله ، وهذا هو الايمان بعينه ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه) ، والنفس للإنسان أقرب من الأهل والعشيرة .

وقوله تعالى :

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)^١ .

انما هى . فيما أفهم . تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست عتابا ، ولى على ذلك دليلان :

^١ - آية ٣٧ من سورة الاحزاب

الأول :أنه تعالى استطرد فقال :

(فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها)^١ .

فالله هو الذى زوجه اياها ولم يتزوجها بنفسه صلى الله عليه وسلم ، وحكمة هذا الزواج تشريعه وهى التى بينها سبحانه وتعالى فى قوله تعالى :

(لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا)^٢ .

وقد كانوا يظنون أن الابن بالتبني تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الأبن من الصلب على ابيه .

الثانى : أنه تعالى قال :

(ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدرا مقدورا * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا)^٣ .

وهذ الآية الكريمة أشارت الى ما كان يخفيه رسول الله صلى

^١ - ، ٢ - من سورة الاحزاب

^٢ - آية ٣٨ و ٣٩ من سورة الاحزاب .

الله عليه وسلم من الحرج فى أن يقول الناس انه تزوج امرأة زيد وهو ابنه بالتبني ، فزال الله عنه هذا الحرج الذى أخفاه فى نفسه بقوله تعالى :

(ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) .

وكان الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم لماذا تتحرج من زواجك بمطلقة ابنك بالتبني وتحسب حسابا لما يقوله الناس مع أن ربك زوجك اياها لحكمة تشريعية وهى احوال الحلال بالزواج من امرأة الابن بالتبني خلافا لما يظنه قومك من أنها تحرم كما تحرم امرأة الابن من الصلب ، ولا مآثم فى الطيبات انما المآثم فى الخبائث ، وانت من المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم ويخشونه ولا يخشون أحدا غيره .

والذى أخفاه فى نفسه واشتارت اليه الآية هو أن الله تعالى علمه بزواجها منه بعد ان يطلقها زيد ، فلما جاءه زيد يشكو اليه شدتها وأنها لا تطيعه ورغب اليه فى ان يطلقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم جهة التاديب والوصية (اتق الله فى قولك وامسك عليك زوجك) يريد فى ذلك ألا يذمها فى خلقها والا يطلقها .

فان قيل لماذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بامساكها مع علمه بانها ستطلق فالرد على ذلك أنه من القواعد المقررة فى القضاء أن القاضى لا يحكم بعلمه ، فلو قال له النبى صلى الله عليه وسلم طلقها لكان حكم بطلاقها بما علم من الله ، وليس فى

أمره بامسآكها مأثم ، الا ترى أن الله تعالى يامر العبد بالآيمان وقد علم انه لا يؤمن ، فليس فى مخالفة متعلق المر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما ، وقد قال الامام القرطبى رضى الله عنه تعقبا على هذه القاعدة الأصولية ((وهذا من نفس العلم فتقنوه وتعلموه)) .

اما ما ذهب اليه البعض من انه صلى الله عليه وسلم رآها فاعجب بها فتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها ، فهذا انما يقوله الجاهلون بعصمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكفى ردا عليهم أن الله تعالى قال له (زوجناكها) فزواجه بها من عند الله للحكمة التى نوه بها القرآن الكريم والتى ذكرتها لكم آنفا ، ولم تكن السيدة زينب بنت عمته بالمجهولة له صلى الله عليه وسلم وهو الذى زوجها باختياره لمولاه زيد ، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لزيد رضى الله عنه أمسك عليك زوجك ولم يقل له طلقها وقد كانت الفرصة مواتية له صلى الله عليه وسلم فى أن يقول له طلقها لحاجة فى نفسه وحاشا أن يكون ذلك من خلقه العظيم .

وقد تأفف أهلها القرشيون حين زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمولاه زيد ، فرد عليهم بقوله تعالى :

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله

فقد ضل ضلالاً مبيناً^١

وبذلك أيد الله رسوله في تزويجه مولاه زيد بابنة عمته ،
وجعل حكم الرسول من حكم الله ، وطاعة الرسول من طاعة الله ،
ومعصية الرسول من معصية الله .

وقد كانت رضوان الله عليها تفاخر نساء النبي صلى الله عليه
وسلم وتقول : ((زوجكن أبأؤكن وزوجنى الله تعالى)) ، كما
أنها كانت تقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((انى لأدل
عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن : ان جدى وجدك
واحد ، والله أنكحك اياي من السماء ، وأن السفير فى ذلك
جبريل)) .

وليس من خلق النبي صلى الله عليه وسلم اعتداء على حرمة
مؤمن ولا مؤمنة ، ولو كان كما يقولون مال اليها بقلبه وتمنى
أن يطلقها زيد ليتزوجها ، لما نسب اليه الله تعالى الانعام على
زيد فى قوله تعالى :

(وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه)^٢

وقد أنعم حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على مولاه
زيد بنعم كثيرة ، فقد أعنقه وتبناه ، وأحبه وزوجه ابنة عمته
القرشية ليرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسلام الخسيصة
ويكسر عصبية الجاهلية .

^١ - آية ٣٦ من سورة الاحزاب .

^٢ - آية ٣٧ من سورة الاحزاب .

١٢- تحريمه صلى الله عليه وسلم السيدة مارية :

قوله تعالى :

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم)^١ .

روى الدار قطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُم ولده مارية فى بيت حفصة ، فوجدته حفصة معه . وكانت حفصة غابت الى بيت أبيها . فقالت له : تدخلها بيتى ؟ ما صنعت بى هذا من بين نسائك الا من هوانى عليك ، فقال لها ((لا تذكرى هذا لعائشة فهى على حرام أن قربتها)) قالت حفصة ((وكيف تحرم عليك وهى جاريتك ؟))^٢ فحلف لها ألا يقربها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ((لا تذكريه لأحد)) فذكرته لعائشة ، فآل لا يدخل على نسائه شهرا ، فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة ، فانزل الله عز وجل :

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم) .

^١ - آية ١ من سورة التحريم

^٢ - وفى رواية اخرى ان الذى حرمه رسول الله على نفسه هو شرب العسل ولكننا نميل الى أن التحريم كان تحريم ماريه أنها هى التى جرت الى الغيرة النسائية من أزواجه صلى الله عليه وسلم

والمقصود بالتحريم هنا هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج ،
لا اعتقاد كونه حراما بعد ما أحله الله تعالى . وكان الدافع له
صلى الله عليه وسلم فى ذلك غرضا نبىلا كشف الله سبحانه عنه
بقوله تعالى :

(تبغى مرضات أزواجك) .

وما أعظمه من خلق رفيع .

واود أن أسترعى النظر الى السياق الكريم الذى بدأت به
السورة ، والذى تضمن تعظيم الرسول وتوقيره بقوله تعالى :

(يا أيها النبى) .

والمغفرة والرحمة التى جاءت بعد السؤال تنصرفان أما الى
تضييقه صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وأما الى العدول عن
المحسوف عليه والتكفير عن اليمين ، ولا ينصرفان البتة الى ذنب
يؤخذ عليه اذ ليس له صلى الله عليه وسلم صغيرة ولا كبيرة ،
وكيف نعتبر ذلك ذنبا مع أن الله تعالى أكرمه فى هذه الواقعة فى
ذاته ، واکرم به أمته ، بأن أحل للأمة عقدة الايمان ، فقال تعالى :
(قد فرض الله عليكم تحلة أيمانكم والله مولاكم
وهو العليم الحكيم)^١ .

^١ آية ٢ من سورة التحريم

فأجاز الله تعالى بذلك التحلل من اليمين بكفارتها إذا أحب الحالف استباحة المحلوف عليه وهو قوله تعالى فى سورة المائدة (فكفارته إطعام عشرة مساكين)^١ .

وانتفاعا بهذا الحكم الذى وسع الله به على الأمة المحمدية كفر صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعاد الى عشرة السيدة مارية ، فعمم سبحانه الرحمة ببركته صلوات الله عليه .

وكيف نعتبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُوخِذَ فى هذه الواقعة ، مع أن الله تعالى كشف له الخبيء فيما تحدثت به السيدة حفصة للسيدة عائشة ، مخالفة بذلك ما وصاها به رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتمان الأمر وهو ما تشير اليه الآية الكريمة :

(فلما نبأت به وظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نباها به قالت من انباك هذا قال نبأنى العليم الخبير)^٢ .

ثم ولى هذا من باب التكريم والغيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزل التهديد من السماء لزوجته صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى :

^١ - آية ٨٩ من سورة المائدة .
^٢ - آية ٣ من سورة التحريم .

(إن تتوبوا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظَاهرا عليه فإن الله هو مولاه وحبريـل وصالح المؤمنـين والملائكة بعد ذلك ظهيرا * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا)^١ .

وهذا التهديد يكشف بكل وضوح عن رضا الله السامى وعن تصدى الله للدفاع عن مقامه صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فهو الحبيب المقرب والرسول المؤيد .

ولو كان فيما أتاه صلى الله عليه وسلم من تحريم مارية ما يؤخذ عليه ، ما واجهه الله زوجتيه اللتين تظاهرتا عليه بهذا الخطاب ، وتهديدهما بهذه القوة البالغة انما ينفى أى مأخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى بالماخذ على سيدتنا عائشة وحفصة رضى الله عنهما الطرف الاخر فى الخصومة ، ومن اصدق من الله حكما .

وان دل هذا التهديد على شىء فانما يدلنا على وجوب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والحنز من التعدى عليه . ألسنت ترى أن زوجته وقد غارتا غيرة نسائية ، لهما بطبيعتهما فيها بعض العذر ، هددتا من الله الأعلا على الرغم من صلتها الزوجية ، فما ظنكم بمن هو أبعد صلة .

^١ - آية ٤ و ٥ من سورة التحريم

وما قرأت هذا التهديد مرة الا تعاطمتنى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول لنفسي اذا جاء التهديد لزوجتيه المتظاهرتين ، وتعدى منهما لسائر أزواجه بهذه القوة عن غيرة نسائية طبيعية ، فكيف بالأمر الأخرى التى تنطوى على نقد لسنته صلى الله عليه وسلم أو الاساءة الى أصحابه وأحابيه ؟ رزقنا الله واياكم سمو الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم .

وقد تابعت بحمد الله الزوجتان الكريمتان المتظاهرتان وصفا قلباهما الطاهران لله ، وكذلك فعل سائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يطلقن ولم يبدله الله خيرا منهن لأن الأبدال كان مشروطا بالطلاق فى قوله تعالى :

(عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجا خيرا منكن)^١

فبقيين جميعا فى خير من عشرته صلى الله عليه وسلم وهذا من فضل الله عليهن .

١٢ . الذنب المقدم والمؤخر

قوله تعالى :

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا

^١ - آية ٥ من سورة التحريم

مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا)^١ .

يتساءل القارىء لهذه الآية عن الذنب المقدم والمؤخر ، وانى ارتاح فى تفسير لواحد من رأيين شملت هما التفاسير التى اطلعت عليها : .

أولهما : أن وقوع الذنب على سبيل الفرض ، اى لو وقع منك فى الماضى او المستقبل فرضا ذنب فهو مغفور لك ، وهذه محبة بالغة من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعناية كبرى بثيبت فؤاده صلى الله عليه وسلم حيث كان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه ((والله انى لأخوفكم من الله)) .

كما كان يقول لهم ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)) . .

وقال أبو على الوبارى فى هذا المقام : لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم :

(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)

مرجعه من الحديبيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ((لقد أنزلت على آية أحب الى مما على وجه الأرض)) ثم قرأها النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله لقد بين الله لك ماذا يفعل بك ؟ فنزلت عليه :

^١ - آية ١ و ٢ و ٣ من سورة الفتح

(لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ
اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)^١ .

الثانى : أن الذنب المغفور ما كان منه وما يكون هو ذنب أمته
وينسب اليه صلى الله عليه وسلم لأنه كفيلا أمته ، وقد قال
صلوات الله عليه (أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظى من الأمم) ،
وهو صلى الله عليه وسلم شافع مشفع فى أمته ، وقد حمل اليه
سيدنا جبريل عليه السلام رسالة من ربه يقول فيها انا سنرضيك
فى أمتك ولا نسوءك .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى
صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى ابراهيم عليه السلام :
(فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ
رَحِيمٌ)^٢

وقول عيسى عليه السلام :

(إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ)^٣ .

فرفع يديه وقال ((اللهم أمتى أمتى)) وبكى ، فقال الله تعالى

^١ - آية ٥ من سورة الفتح
^٢ - آية ٣٦ من سورة ابراهيم
^٣ - آية ١١٨ من سورة المائدة .

لجبرييل اذهب الى محمد وريك أعلم فسله ما يبكيك ، فأنى جبرييل
النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره ، فقال الله تعالى لجبرييل
اذهب الى محمد فقل له ان الله يقول لك انا سنرضيك فى أمتك
ولا نسوءك .

وقد قال الامام على كرم الله وجهه لأهل العراق : انكم تقولون
ان أرجى آية فى كتاب الله تعالى :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله)^١ .

قالوا انا نقول ذلك ، قال ولكننا أهل البيت نقول ان أرجى
آية فى كتاب الله قوله تعالى :

(ولسوف يعطيك ربك فترضى)^٢ .

وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم
((اذن لا أرض وواحد من أمتى فى النار)) .

وقد أشار الى ذلك الشاعر فقال :

قرأنا فى الضحى ولسوف يعطى فسر قلوبنا هذا العطاء

وحاشا يا رسول الله ترضى وفينا من يعذب أو يساء

وقد ذهب ((عطاء الخراسانى)) الى أن الذنب المقدم هو ذنب أبويه آدم وحواء حيث غفر
لهما ببركته صلى الله عليه وسلم ،

^١ - آية ٥٣ من سورة الزمر .

^٢ - آية ٥ من سورة الضحى .

والذنب المؤخر هو ذنوب أمته بدعوته صلى الله عليه وسلم .
فان قال قائل ان الله تعالى أمره صلوات الله عليه بالاستغفار
فى قوله تعالى :

(فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنوبك وللمؤمنين
والمؤمنات)^١

. وهو ما يشعر أن له ذنبا منفردا .

فالرد على ذلك أنه صلى عليه وسلم أمر بذلك مع عصمته
لتستن به أمته ، وقد امثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر
ربه فاستغفر تواضعا لله وهضما لنفسه واستقصارا لعمله فى جنب
الله وقال ((انى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة)) .

وقال البعض فى تفسير قوله تعالى لذنوبك أى لذنوب أهل بيتك
وفى قوله :

(وللمؤمنين والمؤمنات) الذين من أمتك وليسوا من
أهل بيتك .

وقال البعض ان المراد هو النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أمر
بالاستغفار من ترك الأفضل الذى هو بالنسبة اليه ذنوب وحسناتنا
دون ذلك ، وحسنات الابرار سيئات المقربين .

وقيل هو كل مقام عال ارتفع منه الى أعلا منه .

وقد قال صلوات الله عليه انه ((ليغان على قلبى ، وانى لاستغفر

الله فى اليوم مائة مرة) والغين هنا هو غين أنوار متزاحمة على قلبه صلى الله عليه وسلم يرقى بها درجات الكمال لحظة بعد لحظة حتى ذهب البعض الى أن المقصود من قوله تعالى :
(وللاخرة خير لك من الأولى)^١ .

هو أنه يرقى من درجة عالية الى درجة أعلا منها باستمرار . وقد رأى بعض الصالحين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فشكا حاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ((يارسول الله أنه ليغان على قلبى)) فقال صلى الله عليه وسلم مبشرا له ((هذا غين أنوار لا غين أغيار يا مبارك)) .

١٤ . كفالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين !

وتؤيد آيات كثيرة من القرآن الكريم قول عطاء سالف الذكر بأن استغفاره صلى الله عليه وسلم ينصرف الى ذنوب أمته ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم كفيل أمته كفالة عيسى عليه السلام للحواريين .
وانى أسوق فى تأييد هذه الفكرة على سبيل المثال لا الحصر الآيات الكريمة التالية :

قوله تعالى :

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)^٢ .

^١ - آية ٤ من سورة الضحى

^٢ - آية ٦ من سورة الاحزاب

وبقدر ما أعطت هذه الآية لزوجاته الكريمات الأمومة أعطته
صلى الله عليه وسلم من المؤمنين الأبوة وزيادة .
وقوله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا
معهم على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين
يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا
استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم
الله إن الله غفور رحيم)^١ .

فهو صلى الله عليه وسلم القائم على شؤونهم وأمره فيهم نافذ
(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمر أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)^٢ .

كما أن استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو رحمة
كبيرة للمؤمنين ، ويشير الله تعالى الى هذا الباب الواسع من
أبواب رحمته فيقول تعالى ناصحا للمؤمنين :

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله

^١ - آية ٦٢ من سورة النور
^٢ - آية ٣٦ من سورة الاحزاب

واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا (١) .
وفى حين قال تعالى ذلك فى حق المؤمنين قال فى حق غيرهم من
المنافقين :

(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين
مرة فلن يغفر الله لهم) (٢) .
وقوله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء
بينهم) (٣) .

وهذه الآية الكريمة أضافت المؤمنين الى مولانا رسول الله
ويا له من شرف كبير لهم .
وقوله تعالى :

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل
عليهم إن صلاتك سكن لهم) (٤) .

١ - آية ٦٤ من سورة النساء
٢ - آية ٨٠ من سورة التوبة
٣ - آية ٢٩ من سورة الفتح
٤ - آية ١٠٣ من سورة التوبة

فهو صلى الله عليه وسلم للمؤمنين المطهر والمزكى والراحم
لهم بالدعاء .

وقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى
ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات
تجري من تحتها الأنهار يوم لا يجزي الله النبي والذين آمنوا
معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمنهم)^١ .

وقوله تعالى :

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما
قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير
الرازقين)^٢ .

وهذا ذم لمن تفرق عنه صلى الله عليه وسلم ويفيد مفهوم
المخالفة أن الاجتماع به صلى الله عليه وسلم رحمة وأية رحمة .
وقوله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا

^١ - آية ٨ من سورة التحريم

^٢ - آية ١١ من سورة الجمعة

معهُ على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه) ^١ .

وقوله تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم
حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل
حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش
العظيم) ^٢

أى يعز عليه ما تجدونه من مشقات ومتاعب وذلك من رأفته
بكم ورحمته عليكم . وأى ترابط بين الراعى والرعية أقوى من

هذا الترابط ، ويرحم الله اماننا البوصيرى اذ يقول

أحل أمته فى حرز ملته كالثيث من الأشبال فى أجم

وقوله تعالى :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا
أزواجه من بعده أبدا) ^٣ .

وهذه حرمة دائمة له صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ، فهى
حرمة الوالد مع أبنائه البررة .

^١ - آية ٦٢ من سورة النور
^٢ - آية ١٢٨ و ١٢٩ من سورة التوبة
^٣ - آية ٥٣ من سورة الاحزاب

وقوله تعالى :

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم
فى شىء)^١ .

ومن مفهوم المخالفة يؤخذ أن الذين اتبعوه واجتمعوا به على
الله هم منه وهو منهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لأنصار
الذين بايعوه عند العقبة ((أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم
وأحارب من حاربتكم)) .

وقوله تعالى :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة
فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا
قريبا)^٢ .

وكانت البيعة فى الحديبية قريبا من مكة وقامت على أن يناجز
المؤمنون قريشا ولا يفروا فكانوا بذلك مع النبى صلى الله عليه
وسلم يدا واحده على عدوهم ، وكان عددهم ألف وأربعمائة ،
وكان مولانا عثمان بن عفان سفيرا بحكم لمولانا رسول الله صلى الله
عليه وسلم يفاوض أهلها فلم يحضر البيعة فوضع صلى الله

^١ - آية ١٥٩ من سورة الانعام
^٢ - آية ١٨ من سورة الفتح

عليه وسلم يده اليسرى على يده اليمنى وقال وهذه يد عثمان وهو شرف كبير لمولانا عثمان رضى الله عنه .

وقوله تعالى :

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)^١ .

فبينما نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوم فى مسجد المنافقين بقوله تعالى :

(لا تقم فيه أبدا)^٢

أتبع ذلك فأمره أن يقوم فى مسجد المؤمنين الذين يحبون أن يتطهروا .

وقوله تعالى :

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك

^١ - ١٠٨ من سورة التوبة

^٢ - آية ١٠٨ من سورة التوبة

ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم) ^١ .

وقد جعل الله بهذه الآية الرحمة قسمة بين طائفتي المؤمنين فى القتال لئلا يحرم فريق منهم من امامته لهم صلى الله عليه وسلم والتبرك به استدارا لرحمة الله التى تاتىهم واسعة على يديه صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى :

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ^٢ .

وما أعظم واو العطف فى هذه الآية ، وما أعظم تأكيد العطف بكلمة ((كل)) والمؤمنون بهذا العطف المؤكد سعدوا سعادة لا يعدها سعادة ، وما أغنى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رصيد ايمانه الذى شاركه فيه المؤمنون فاغتموا بغناه وحظ الوريث من حظ المورث . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما .

وهكذا تجردون القرآن الكريم مليئا بالآيات الدالة على أن المؤمنون منسوبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٥ . الركون للمشركين :

قوله تعالى :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفتري)

^١ - آية ١٠٢ من سورة النساء

^٢ - آية ٢٨٥ من سورة البقرة

علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد
كدت تركن إليهم شيئا قليلا^١ .

وظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وباطنه اخبار عن
((ثقيف)) ، وهذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم الى المشركين
فى شى من أحكام الله تعالى وشرائعه حين قالوا لا ندخل فى أمرك
حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب ، لانعشر . أى لا يؤخذ
منا العشر . ولا نحشر . لانجمع للجهاد . ، ولا نجبى فى صلاتنا
— أى لانركع . ، وكل ربانا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو
موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة ، وإن تحرم واديننا كما
حرمت مكة ، فان قالت العرب لم فعلت ذلك فقل : ان الله أمرنى .
وقد عصمه الله من الأخذ برأيهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم
حين نزلت عليه هذه الآية ((اللهم لا تكنى الى نفسى طرفة عين)) .
وقوله تعالى :

(ولولا أن ثبتناك) . أى لولا تثبيتنا اياك

وقوله تعالى :

(لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا)

أى أدركنا عصمتنا فمنعت من أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن اليهم . وكلمة (لولا)
تفيد انتقاء الشىء لثبوت غيره . تقول لولا زيد لهلك عمرو ، ومعناه أن وجود زيد منع من

^١ - آية ٧٣ و٧٤ من سورة الاسراء

حصول الهلاك لعمرو ، وكذلك الأمر هاهنا معناه أن تثبت الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم حصل فكان حصول ذلك التثبيت ما نعا من حصول ذلك الركون .

١٦ . قصة الأعمى :

قوله تعالى :

(عسى وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله
يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى
فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك
يسعى . وهو يخشى * فإنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة)^١ .

الأعمى هو سيدنا عبد الله بن أم مكتوم من أجلاء الصحابة وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فهو بذلك من أصهار النبي صلى الله عليه وسلم وفرد من أفراد أسرته . وقليل من يفهم هذه السورة على وجهها الصحيح ، فالقصة موجهة إلينا نحن المؤمنين ليعلمنا الله ان ابن أم مكتوم الأعمى خير عند الله من المأ الأعلام من قريش الذين اجتمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعا في إسلامهم بدليل قوله تعالى :
(أما من استغنى فأنت له تصدى) .

^١ - الآيات من ١ الى ١١ من سورة عبس

ولم يقف الكلام عند هذا الحد بل قال تعالى مسلينا حبيبا
المصطفى صلى الله عليه وسلم ومهونا من شأن هؤلاء الأغنياء فى
جيوبهم والفقراء فى قلوبهم
(وما عليك ألا يزكى) .

أى ماذا يضريك من كفرهم ان لم يؤمنوا . ان عليك الا
البلاغ وقد فعلت .

ولا حرج على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أرجأ الرد
على ابن أم مكتوم اطمئنانا الى ايمانه والى رفع التكلف معه
باعتباره من أسهارة ، وحاشا أن يكون ارجاؤه له عن استضعاف
أو ازدراء وهو الذى رفع الله على يديه بالاسلام الخسيصة ، وهو
الذى علمنا فيما علمنا ((لاتحقرن صغير المسلمين قان صغير
المسلمين عند الله كبير)) .

ألا تذكرون أنه صلى الله عليه وسلم حين قسم الغنائم فى حنين
زاد من عطائه لأهل مكة الطلقاء ، تأليفا لقلوبهم ، حيث كانوا
حديثى عهد بالاسلام ، فلما تحركت بالغيرة نفوس الأنصار قال
لهم حبيبا مصطفى صلى الله عليه وسلم مطيبا خواطرهم انى
أعطيتهم تأليفا لقلوبهم ووكلتكم الى ايمانكم ، اما ترضون أن
يرجع أحدهم بالشاة والبيعير وترجعون برسول الله الى رحالكم
فطابت بهذا التوجيه العالى نفوس الأنصار وما أبدعه من توجيه
ولا يفوتكم أن السورة بدأت هكذا .
(عبس وتولى أن جاه الأعمى)

ولم يقل الله (عسيت) ولا (توليت) ، وخطاب الغائب هنا انطوى على رقة عالية لا يدركها الا اهل الذوق السليم للمعاني .
وقرب من معنى سورة (عس) قوله تعالى فى سورة الكهف (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)^١ .

وقد قال صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية فرحا بالعباد فى أمته (الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى على ناس من أمتى) .
وهذه الآيات وأمثالها انما تبرر فضل الايمان وأهله وتحط من قدر الكفر وأهله .

وإذا قيل أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا لقي ابن أم مكتوم يقول له مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي ، وبهذا يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتبر الخطاب عتابا ، فان ذلك من كماله صلى الله عليه وسلم ، واذا سمي عتابا فهو عتاب لزيادة الاثابة لا للمؤاخذة ولا للعقوبة لأنه لو وقعت مؤاخذة أو عقوبة له صلى

^١ - آية ٢٨ من سورة الكهف

الله عليه وسلم لناسبت درجته السامية وكانت شديدة للغاية ،
وانى استند فى ذلك الى ما بينه الله تعالى فى الاية الكريمة :
(ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه
باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين^١ * فما منكم من أحد
عنه حاجزين)^٢

١٧ . الضلال والهدى :

قوله تعالى :

(ووجدك ضالا فهدى)^٣

خير ما وجدته فى تفسير هذه الآية الأقوال الآتية :

ليس الضلال فى هذه الآية هو الكفر بل المعنى : وجدك ضالا
عن النبوة فهذاك اليها .

أو : وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان
والى ارشادهم اليه .

أو : وجدك ضالا عن شريعتك أى لا تعرفها فهذاك اليها

وقيل : وجدك ضالا عن الهجرة فهذاك اليها .

وقيل : وجدك طالبا للقبلة فهذاك اليها .

^١ - الوتين : نياط القلب

^٢ - الآيات من ٤٤ الى ٤٧ من سورة الحاقة

^٣ - آية ٧ من سورة الضحى

وقيل : وجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك فهذاك إليه ،
فيكون الضلال بمعنى التحير لأن الضال متحير .

وقيل : وجدك ضائعا فى قومك فهذاك إليه ، ويكون الضلال
بمعنى الضياع ، ووجدك محبا للهداية فهذاك إليها ، ويكون
الضلال بمعنى المحبة ومنه قوله تعالى :

(قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم)^١ .

وقيل : وجدك ضالا ليلية المعراج حين انصرف عنك جبريل
وأنت لا تعرف الطريق فهذاك الى ساق العرش .

وقيل : وجدك متحيرا فى بيان الكتاب فعلمك البيان ، بدليل
قوله تعالى :

(لتبين للناس ما نزل إليهم)^٢ .

وقيل : ان العرب اذا وجدوا شجرة منفردة فى فلاة من الأرض
لا شجرة فيها سموها ضالة فيهدى بها الى الطريق .

فقول الله تعالى .

(ووجدك ضالا) .

أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق الى .

^١ - آية ٩٥ من سورة يوسف

^٢ - آية ٤٤ من سورة النحل

وفى قراءة مولانا الحسن :

(ووجدك ضالاً فهدى)

أى وجدك الضال فأهدى بك .

وقيل : وجدك ضالاً لا يهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك
فهدى المسلمين حتى آمنوا بك .

أما الصوفية فقد قالوا ان معنى الآية :

(ووجدك ضالاً فهدى)

وجدك غارقاً فى أنواره فهداك لمشاهدته .

وجماع ما يؤخذ مما تقدم أن الله تعالى صاحب المنة على رسوله
صلى الله عليه وسلم فى ايمانه وعلمه ونوره ، وأن منته عليه تعالى
فى كل ذلك لا تقف على حد شخصه بل أنه أمد بها أهل الايمان
جميعاً ، فكان صلى الله عليه وسلم المنير المضىء فى ذاته
والذى يستضىء به أهل الايمان جميعاً ويسلكون الى الله بنوره
المبين :

(يا أيها النبى إنما أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *)

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)^١ .

ولا عجب فقد قال له مولاه الذى خلقه ورباه وقربه وأدناه

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^٢ .

^١ - آية ٤٥ و ٤٦ من سورة الاحزاب

^٢ - آية ١٠٧ من سورة الانبياء

ولا تنسوا أن الله تعالى جعله الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر .

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان
يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)^١ ،
ويشهد لذلك القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى :

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري
ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من
نشأ من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط
الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير
الأمور)^٢ :

فايمانه صلى الله عليه وسلم جاء بعطاء من الله لا عند بعثته
بل منذ نشأته صلى الله عليه وسلم والدليل عن ذلك واضح من
شمائله العالية التى عرف بها منذ الصبا ، اذ لم يسجد قط لصنم
ولا زنى ، ولا شرب الخمر ، ولا شهد السمر ، لأن الله تعالى نزهه
وصانه عن كل ذلك كما سبق القول .

والمعروف فى سيرته أيضا أنه قبل نبوته يخالف المشركين

^١ - آية ٢١ من سورة الاحزاب
^٢ - آية ٥٢ و ٥٣ من سورة الشورى

فى وقوفهم بمزدلفة فى الحج ، وكان يقف هو بعرفة لأنه كان موقف أبيه إبراهيم عليه السلام ، وإنما كان بتوفيق الله إياه . وعلى هذا يكون معنى الآية : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، أى ما كنت تعلم تفاصيل هذا الشرع فعلمك الله إياها مع أنك نشأت بين قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان حتى تتعلم منهم شيئاً من ذلك ، وقد أفضت على قومك من هذا العلم ما جعلهم أئمة العلم على مر الأزمان دون أن يدخلوا مدرسة أو جامعة وهذا من المعجزات الباهرات ، ولو أنهم رأوك تكتب العلم أو تتلقاه من معلم لارتابوا فى نبوتك ويشهد لذلك قوله تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون) ١ .

١٨ . الوزر الذى أنقض الظهر :

قوله تعالى :

(ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك) ٢ .

تفيد هذه الآيات الكريمة ان الله سبحانه وتعالى شرح صدر حبيبه المصطفى للإيمان وملاه حكمة وعلماً ، فكان له من

١ - آية ٤٨ من سورة العنكبوت
٢ - آية ١٠٢ و ١٠٣ من سورة الشرح

ذلك أكبر نصيب ، ونهل المؤمنون من منهله العذب غذاء أرواحهم
الذى أنقذهم من موت الكفر وعصمهم من فتنة الشيطان .
أما الوزر فهو عبء الرسالة التى عهد بها الله اليه ، وهو عبء
ليس بالهين .

وكان شىخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحوانى رضى
الله عنه يقول أن تعليل قلوب الرجال أثقل من حمل الجبال ، وإذا
كان العبء ثقيلًا هكذا فى تهذيب قلوب أهل الايمان ، فكيف
بعبء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نقل الناس من ظلمات
الكفر الى نور الايمان .

والمعنى أن الله تعالى قواك على أن تحمل عبأك على الرغم من
ثقله ، وذلك الثقل الذى يجعل للظهور قضيضًا ، وهذا القضيض
ليس على ظاهر الأمر ، اذ الثقل الظاهر أخف نسبيًا من الثقل
الباطن ، وهو هنا عبء الامانة التى حملها رسول الله صلى الله
عليه وسلم دون أن يرهبها ، وذلك انما كان بعون الله وتوفيقه .
ألستم تقرؤون ما نزل فى الامانة (وهى التكاليف الشرعية) قوله
تعالى :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)^١

^١ - آية ٧٢ من سورة الأحزاب

والانسان هنا هو الذى ضيع الأمانة ولم يعطها حقاً كما أراد الله

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)^١ .

ولذلك كان اماننا ((على)) يتغير لونه اذا جاء وقت الصلاة ، فلما سئل فى ذلك قال : جاء وقت الأمانة التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وخوفه هذا انما جاء من تقواه لعبء الأمانة .

وختم الله هذه السورة بقوله تعالى :

(فإذا فرغت فإنصب * وإلى ربك فارغب)^٢

والمعنى اذا فرغت من دعوة الخلق الى الله فاجتهد فى عبادته تعالى ، وذلك من باب الشكر والحث على أن يواصل المؤمنون الاجتهاد فى العبادة ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فقالت السيدة عائشة ((لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) ، فقال صلى الله عليه وسلم ((أفلا أكون عبدا شكورا)) .

هذه يا اخوانى قطرات من سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ولكنها على قلتها تعبق الآفاق الروحية فتنتعش برائحتها أرواحنا فنزداد ايمانا مع ايماننا ، وتتحرك أشواقنا الى الملأ الأعلى ، ومن سار على الدرب وصل .

^١ - آية ١٠٣ من سورة يوسف
^٢ - آية ٨٧ من سورة الشرح

ولا أبرح مكاني هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى
الله عليه وسلم بخالص التحية والاعظام وبيالغ اعتذاري من قلة
جهدي فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ظامعا أن يحمل قصوري
على رأفته ورحمته بالمؤمنين :

رسول الله معذرة اذا ما	عجزت وقصرت منى اليدان
أحاول من مديحك سامقات	فيعجز منطقي عظم المكان
وكل فتى يحاول منك وصفا	يعانى من سموك ما يعانى
سلام الله من فلذات قلب	بجبك خافق الفلذات حانى

وأشكر النادى الموقر وأشكركم شكرا كثيرا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .